رسالتان

من الأستاذ الشاعر الكبير عباس محمود العقاد

•

الرسالة الأولى

تَلَقّى الأستاذ الكبير فى داره بمصر الجديدة من صديقه — وكان عزوفاً عن الزواج مثله — عُلْبةً من عُلَب الحلوى المعتاد إهداؤها للأصدقاء فى الأعراس ، ومعها هذه الرقعة يعلن فيها على حين غفلةٍ زواجه ، ويحثه أن ينزل مثله على سنَّة الناس . ويلحق بزمرة المتزوجين :

هذى هديةُ عُرْسى إلى فتى عَيْنِ « شمسِ »
عَدْوَى تثاؤُب عَمْروٍ فى يومنا مثلُ أمس
أنعِمْ بعدوى زواجٍ أعْدَى بِحُبٍّ وأُنْس
يا مُبدعاً ما تأسَّى قد حان وقتُ التأسى

عبد الرحمن صدقى

٤ فبراير سنة ١٩٤٠

---

(١) إشارة إلى قول أبي العلاء المعرى فى امتناعه عن الزواج :

تثاءب عمرو إذ تثاءب خالد بعدوى فلم تلحقنى الثؤباء

فأجاب الأستاذ الكبير :

لم يُغْنِ تُرْسُك شيئاً فهل سينفع تُرسى
إذا تزوج « صدقى » فلستُ أضمن نفسى
ولستُ أنجو ولو فى دارِ « المعرِّى » حبسى
فَاهْنَأْ بِعِرْسِ اخْتيارٍ بَعْدَ اختبارٍ ودَرْس
راضتْ شماسَك حبًّا والحب رائضُ شُمْس [1]
وطَوَّعَتْكَ بسِحْرٍ مِنْ عطفها لا بِبَأْس
لولا فضائلُ فيها ما كنتَ صاحبَ عِرْس

الرسالة الثانية

بعد نيف وأربع سنوات ، تَلَقّى الأستاذ الكبير من صديقه المحتجب الغارق فى حياته الزوجية السعيدة ، قصائد ينعى فيها زوجته ومعها هذه المقطوعة :

أخى ، منذُ أعوامٍ تَلألأَ مَسْكَنى وَشاعَ بهِ ضِحْكُ الرضا والتَّيَمُّنِ
لقد كان عُرْسى يومذاك ، ومَوْلدى بِكَوْنٍ جديدٍ من هوًى ولَحَنِّ
أخى ، تلك أعيادى وأعيادُ زوجتى وما حلَّ منها العيدُ إلا ذكرتنى
وأرسلتَ لى فى كل عيدٍ مُهَنِّئاً وباركتَ لى فى جَنَّتى وغَبَطْتنى
مَضَتْ هذه الأعيادُ من غير رجعةٍ وهذى مراثى زوجتى اليوم فَارْثنى

---

(١) شمس شماساً : امتنع فهو شموس ، والجمع شمس (بالضم) .

فأجاب الأستاذ الكبير :

أخى ! ما عزائى أَنْ أُهوّنَ فاجعاً ... أراه — وإن لم أَبْـلُه — غيرَ هيِّنِ
ولكنْ عزائى هذه الحربُ زلزلت ... قلوبَ بنى حواءَ فى كل مأمن
ولكن عزائى هذه الأرض علمت ... بَنِيها هوانَ العيش عِلْمَ التيقّن
قضاءٌ علينا فى الحيـاة فراقُنا ... لأحبابنا حيثُ التقينا بموطن
فجيعتُنا فيمن نحب بديلُها ... فجيعتُهم فينا ، ومن يَبْقَ يُغبن
فلا تَرْضَ للأحباب غَبْناً يَؤُودُهم ... وليس الرضا فى الحالَتيْن بممكن
ألا هان عيشٌ لا يزال خِيـاره ... لمن يرتجيه شاكياً : مُتْ أوِ احْزَنِ

●

أخى ! هذه الدنيا وهذا عزاؤُها ، ... قصاراه — بعد الجهد — تسليمُ مذعن
وما أحسب الإيمانَ إلا حقيقةً ... فلا صبرَ فيها لامرئٍ غيرِ مؤمن

من وحى المرأة

للأستاذ عباس محمود العقاد*

من أعجب ما يلاحظ على آداب الأمم قلة ما نظمه الشعراء فى رثاء النساء ، ولا سيما الزوجات

فعلى كثرة الغزل فى المرأة نرجع إلى شعر الأقدمين والمحدثين و إلى شعر العرب وغيرهم من الأمم ، فلا نرى فى لغة من اللغات إلا قصائد معدودات فى رثاء النساء والزوجات منهن على الخصوص

فليس أكثر مما نظمه الشعراء فى التغزل بالمرأة ، ولا أقل مما نظموه فى الحزن عليها

وقد رثى شعراء العربية الأمهات كرثاء المتنبى لجدته ورثاء الشريف لأمه ، ونظموا العزاء فى أخوات الأمراء وقريباتهم ، كما نظم المتنبى تلك القصيدة اللامية فى رثاء أخت سيف الدولة ، ولم ينس أن يقول منها :

ولو كان النساء كمن فقدنا ... لفُضّلت النساء على الرجالِ

كأنه يعتذر من هذا الشذوذ فى قواعد الرثاء بحالة مستثناة لا يقاس عليها ، وهى حالة هذه السيدة التى تفضل السادة الرجال !

---

* نشرت فى مجلة الرسالة — القاهرة

بل وجد فى صدر الإسلام من يرثى امرأته معتذراً حيث يقول :

لولا الحياء لهاجنى استعبارُ ولزرت قبرك والحبيب يزارُ

ولم يظهر المعنى الإنسانى فى رثاء المرأة — حليلة كانت أو غير حليلة — قبل عهد ابن الرومى الذى قال فى بستان المغنية :

بستانُ ! واحسرتا على زَهَرٍ فيك من اللهو بل على ثمرِ

وقال من القصيدة بعينها يذكر وفاتها فى ريعان الشباب :

يا غضّة السن يا صغيرتها أصبحتِ إحدى المصائب الكبر

ورثى امرأته رثاء يدل على هول الفجيعة فيها فقال :

عينىَّ سُحّا ولا تشحّا جلّ مصابى عن العزاءِ

ونظم قصيدة أخرى فى مثل هذا الرثاء

●

وليس بالعسير تعليل هذه الظاهرة المتفقة فى جميع الآداب العالمية ، فإن الأمر مرتبط بمكانة الزوجة فى العصور القديمة ، ثم فى هذه العصور الحديثة . ومما لا اختلاف فيه بين الأمم أن الزوجة كانت فى أقدم العصور كالقُنْية المملوكة التى لا فرق بينها وبين الجارية الرقيقة ، ثم ارتفعت مكانتها فظهرت الزوجة ربة البيت ، ولكنها لم تزل فى عرف المجتمع شهوة من شهوات الضرورة التى يلجأ إليها الرجل فى ساعة ضعفه أو الساعة التى تغلبه الطبيعة الحيوانية ، ولم تظهر المرأة التى هى « شريكة حياة » ، أو سكنٌ للرجل كما جاء فى القرآن الكريم إلا فى العصور الأخيرة ، وإن

كانت لها رائدات سابقات بين بعض الأسر فيما تقدم من العصور

فالشاعر كان يتغزل فى المرأة ولا يخجل من ذلك لأن الغزل منسوب إلى الظرف واللباقة

وكان يرثى أمه أو جدّته لأن حب الأمهات والجدات محسوب من البر المشروع الذى لا ضعف فيه

وكان يرثى أمهات الأمراء وقريباتهم ، لأن عزاء الأمراء واجب من واجباته المفروضة عليه

ولكنه لم يكن يرثى الزوجة المتوفاة ، لأنها شىء يخصه ولا يفهم معنى الفجيعة فيه عند أبناء عصره إلا على معنى الضعف الذى لا يجمل بالرجال ، وكيف كان يجمل بهم أن يتفجعوا على الزوجة المفقودة ، وقد كانت زيارة قبرها مما يحتاج إلى اعتذار ؟

ولا شك أن آداب الأمم هى خير مسجل لأخلاقها الاجتماعية سواء تعمدها الشعراء أو لم يتعمدوها

فمن الظواهر الحديثة التى تسجل فى الأدب العربى — أو الأدب المصرى — أن الزوجة « شريكة الحياة » تمثّلت فى شعرنا العصرى تمثلا واضحاً بليغاً صادق المدلول ، لأننا قرأنا فى سنوات متقاربات ديوانين كاملين فى رثاء الزوجة الفقيدة ، وكلاهما لم يكن ظهوره بالمفهوم قبل هذا الجيل ، لأن وجود شاعرين اثنين يفيان لذكرى فقيدتيهما لا يكفى لإظهار

ديوانين فى هذا المعنى ، ما لم يكن هذا المعنى ملحوظاً مقدراً عند الكثيرين من أبناء الجيل الذى ينشآن فيه

قرأنا بالأمس ذلك الديوان الحزين الذى نظمه الشاعر المطبوع الأستاذ عزيز أباظة بك وسماه « الأنات الحائرة » ، لأنه أقوى من أن يسمى بالدموع

وقرأنا هذه الأيام ديواناً آخر فى هذا المعنى للشاعر الألمعى الأستاذ عبد الرحمن صدقى سماه « من وحى المرأة » ، لأنه لم يكن إلا وحياً فاض به حزنه على فقيدته العزيزة ، فخرج فى جملته منظوماً كأنه لا يحتاج إلى ناظم ، وجاء فيه بقصائد ومقطوعات ستبقى فى عداد الشعر الخالد ، سواء منه ما نظم فى هذا الموضوع أو غير هذا الموضوع

ويدل على أن ظاهرة الزوجة شريكة الحياة هى الباعث على نظم هذين الديوانين أنهما قد نظما فى زوجتين لا تجمع بينهما صفة تُعزهما غير صفة المشاركة فى الحياة ، فلا يقال إن القرابة هى باعث الرثاء ، لأن إحدى الزوجتين أجنبية عن البلد فضلا عن الأسرة ، ولا يقال إن الذرية هى علة الإعزاز ، لأن إحدى الزوجتين لم تعقب ذرية بعدها ، ولا يقال إن الحب العاطفى هو مصدر هذا الوحى ، لأن الحب العاطفى قد يوجد ولا يوجد معه التفاهم فى الأفكار ولا التعاون على أعباء الأسرة وشواغل النفوس ، ولكنها المشاركة فى الحياة وحدها هى التى يرجع إليها الإيحاء بهذين

الديوانين ، حين فهم العصر كله معنى الزوجية التى تقوم على هذه المشاركة بين حياة إنسانين

والزوجة شريكة الحياة — حياة الأديب على التخصيص — هى التى يقول الأستاذ صدقى فى وصفها :

وكنتِ الغنىَ من مُشكلٍ بعد مُشكل ... وعُقْداتِ نفسٍ تستديم قلاقلى

مشاكل شتى : حاجةُ النفس للهوى ... وحاجةُ ذى حس ، وحاجة عاقل

جمعتِ لى الدنيا فأغنيت مُعدمى ... وأمتعت محرومى وزيّنت عاطلى

أو يقول فى ذكرياتها من قصيدة أخرى :

وخيرُ رفيقٍ أنتِ فى كل رحلةٍ ... وخيرُ سميرٍ للحديث ينضّدُ

ونجلس فى حضن الطبيعة — صمتُنا ... مناجاتُها — إنّ الطبيعة معبد

ونجلس الأشعار ندرسها معاً ... كأنْ ليس غير الكتْب فى العيش مقصد

وقد تكون شريكة حياة ولا يكون قوام المشاركة بينها و بين قرينها طول الشغل بالدراسة والمطالعة ، كما قال الأستاذ عزيز فى قصيدته الدالية فى يوم ميلاده :

أقول والقلب فى أضلاعه شَرِقٌ ... بالدمع: لاعدتَ لى يا يوم ميلادى

نزلتَ بى ودخيل الحزن يعصف بى ... وفادح البثّ ما ينفك معتادى

وكنتَ تحمل لى والشمل مجتمع ... أنساً يفيض على زوجى وأولادى

فانظر تَرَ الدار قد هيضت جوانبها ... وانظر تجد أهلها أشباحَ أجساد

فقدتُها خلةً للنفس كافية ... تكاد تغنى غناءَ الماء والزاد

وموئلا أجد الأمنَ الكريمَ به إذا تعاورنى بالبغى حسّادى
تحنو علىّ وترعانى وتبسط لى فى غمرة الرأى رأىَ الناصح الهادى

وهذه هى صفة الزوجية التى تشترك فيها حياتان بالرأى والعطف ، وتكاد تغنى غناء الماء والزاد ، بل تكاد تجعل يوم الميلاد يوماً مشتركا لا يستقل فيه الزوج بذكرى ولادة له لا ترتبط بذكرى الزواج

هذه الحياة أعجوبة الأعاجيب ، وهى أعجب ما تكون فى مألوفاتها الشائعة كل صباح ومساء ، ومن تلك العجائب أنها لا تجود بخير لا شر فيه ولا تصيب بشر يخلو كل الخلو من الخير . وليس عزاء الإنسان على شطر نفسه وصنو حياته باليسير ، ولكنه على كل حال من العزاء النبيل للشاعرين الفاضلين أن مصابهما قد أغنى الأدب العربى بهذه الذخيرة النفيسة ، وسجل المجتمع المصرى هذه الظاهرة الكريمة التى تقترن أبداً بالتهذيب والارتقاء

عباس محمود العقاد

للأستاذ إبرهيم عبد القادر المازنى *

الأستاذ عبد الرحمن صدقى شاعر مُجيد وأديب كبير لا أعرف أحداً أشد منه تقصيراً فى حق نفسه ، فإنه على سعة اطلاعه على الأدب العربى

---

* نشرت فى جريدة البلاغ — القاهرة